ألـمٌ يختزلهُ قلـم

قراءة في ديوان " أنا الجاني" للشاعر شفيق حبيب

الدكتور / منير تـومـا

كان الأستاذ الشاعر شفيق حبيب، قد أهداني مشكورًا ديوانه الأخير الذي يحملُ عنوان " أنا الجاني "، مع أنني لم أتشرف بمعرفة الشاعر شخصيًا، إلا إنني كنت قد قرأتُ له العديد من القصائد المنشورة في الصحف المحلية حيث برز دائمًا كشاعر مُجيد متألق في عالم الشعر، لا سيما وأنه عريقٌ في نظم الشعر وله الكثير من الدواوين الشعريّة، التي صدرت له في السنوات الماضية.

يبدو من خلال قصائد القسم الأول للديوان، أن الشاعر يحملُ همًّا من الهموم العربية الكبرى التي تقضّ مضجعَه، فالشاعر يعاني الألمَ والمرارةَ من الواقع العربي الذي يتسِم بالضَّعف والتخاذل والانحطاط، نتيجةً لسوءِ الحال والنيّات السيئة والانقسامات المفتعلة، فالعرب في تصور الشاعر، بحاجةٍ لمحاسبة الذات والوقوفِ قليلا مع النفس واستعادة أحداث الماضي بكل أبعاده وتفصيلاته، ومناقشةِ الأمور كلها بحُريّة،

وديمقراطية لكي يكونَ الإنسان حُرًّا قادرًا على استعادة كرامته المهدورة أمام الهجمات الشرسة الكاسحة التي يتعرض لها، منطلِقًا من ثقته بنفسه وقدراته.

ويحاولُ الشاعرُ بأسلوبه الشعري الخاص إيقاظَ العرب من غفلتهم وتنبيههم إلى أخطائهم وتذكيرهم بها، بالسّخرية تارة وبالتقريع واللوم تارة أخرى فالهزائمُ والانتكاساتُ زرعتْ اليأسَ في قلوب الناس وكرّست الشعور بالموت، وقطعت كل ما تبقى من أمل وطموح، وهذا ما جعل الشاعر يثورُ غاضبًا، مُتألمًا من حال العرب الذين أدمنوا الذلّ والهزيمةَ مسرعين إلى إضاعة الوقت في كل ما لا يُفيد ولا يسمن أو يغني من جوع، وهو يعبِّر عن ذلك قائلاً:

أضحى الضَّياعُ مواقفي وعواصفي
والحزنُ أصبح مأكلي وشرابي
(ص ١٤)

ويجلدُ الشاعرُ المتخاذلين من الحكام العرب، ويصوِّر مآسي قومه وقتامه واقعهم بعد رحلة حزينة مؤلمة فيقول :

صَمَتَ الزناةُ.. فأرضُنا محروقةٌ
والنارُ تأكلُ أحرفي وكتابي

فمزابلُ التاريخ جَوعي للذي
يحيا حياةَ مذلةٍ وكلابِ

ويتعرّض الشاعر لقضايا الشعب العربي المصيريّة، ويحمِّل المآسي المتعاقبة لمن تسبّبوا بها من العرب الذين نسُوا سنوات الشموخ وتراثَ الأجداد، فغرقوا في وحول ملذاتهم وشهواتهم حيث يقول :

كلابُ عُروبتي تتقعي...
على أعتابهم جوعي..
لعلّ الله يُعطيها...
عظامَ موائدِ الأسيادِ والجانِ
وتشغلها حواراتٌ
عن النسوانِ.. والفتيانِ.. والخصيانِ
عن طاقات شيطانِ
يضاجعُ ألفَ أنثى كل يومٍ
يفتحُ الدّنيا...
فهذا الشرقُ ماخورٌ
وبحرُ قذىً وأدرانِ
ننادي.....
عاشَ هذا الزيرُ
رافعَ هامةِ العربانِ
من طرشٍ وعُميانِ
(ص ٢٨)

obeikandl.com

لقد عصف الواقعُ العربيُّ بأحلام الشاعر وآماله، وفقد العالم العربي أولى الحتميات وهي الثقة بالنفس، وازداد الشعور بالمرارة واليأس، ولما كان الشعراءُ يمتلكون رهافة الحسِّ والمشاعر، كانوا أسبقَ الناس تأثرًا ومعاناة، والشاعر شفيق حبيب يعترف بذلك:

لم يبــــقَ في حاضـــري شـــيءٌ أقدّسُـــهُ
أضـــحيتُ بـــين الـــورى عنـــوانَ إجـــرامِ

الـــذلّ في الشـــرق مـــوروثٌ نتيـــهُ بـــهِ
ســـائلْ فلـــولَ قيـــاداتٍ وحكـــامِ

يـــا أمـــةً نشـــرتْ يومًـــا حضـــارتها
مـــالي أراكِ بـــإظلامٍ وإعتـــامِ

مـــالي أرى شمسَـــكِ الغـــرّاءَ غاربـــةً
كيـــف المصـــيرُ إذا مـــا انهـــار أقـــوامي؟

يـــا أمـــةَ العُـــرْبِ هـــلا يســـتفيقُ بنـــا
عقـــلٌ يقـــودُ إلى الميننـــاء أعلامـــي؟

لا كـــانَ شـــعري ولا كانـــت قلائـــدُهُ
إنـــي سأكسِـــرُ بعـــدَ اليـــومِ أقلامـــي

(ص ٣٢)

إنَّ المتأمِّلَ في هذه الأبيات سوف يرى بوضوح أنَّ لغةَ الشاعر هنا هي لغة اليأس ولغة الحزن، ومن خلالها يعلن كُفْرَهُ بالموجودات كلها، فقد تحوّلت حياة الشاعر اليوميّة إلى النقيض، فحزنُ الإحباط العربي بدّلَ مُتعته ألمًا يغزو الجسدَ والنفسَ كما تصوِّرُها تلك الصّورةُ الكئيبةُ والحالةُ النفسيةُ السيئةُ التي أحاطت بالشاعر.

إنّ الشاعر لا يكشفُ عن واقع، لكنه يكشف عن الحزنِ الذي يسكنه، والمرارةِ التي تعتريه، فهو يُبرز العاهاتِ والعيوبَ التي تشلّ أجسادَ ونفوسَ العرب، وتوقفُ تحركهم الطبيعي في القضايا المصيرية، فالطبيعة العربية، والشخصية العربية وما جُبلت عليه، قد خالفها العرب، فأصبحوا ضدَّ قِيَمِ العرب وفخرِ العرب وشرفِ العرب :

لماذا يصْمتُ الشعراءْ

لماذا ينزوي البُلغاءُ والخطباءُ

والبُصَراءْ..؟؟

فهل باعوا ضمائرَهم

لنخّاسي قصورِ البغيِ والغوغاءْ...؟؟

وهل يهبون ألسنةً نعالاً

يحتذيها السّادةُ الأمراءْ..؟؟

إذا ديست كرامتنا

إذا ضُربت على الهاماتِ أمتنا..

بعُرفِ شراذمِ الجُهَلاءْ...

(ص ٥٠-٥١)

ويرى الشاعر أنّ الشعوبَ هي التي تصنع جلاديها الذين يحوّلونهم إلى قطيع أشبه بالحيوان، يساقُ سَوْقَ الأنعام، ويَسلبون إرادتهم ويكتمون أنفاسهم، وهو يتهم أمّة العرب بأنها فقدت أملها في المستقبل لأنَّ الفصام قد أصابها، ففي نفسها شيء، وفي سلوكها شيءٌ آخر، فإرادتها مسحوقة، ولا تنطق ضدّ الجور والطغيان ببنت شفة، وأبناءُ هذه الأمة أصبحوا موتى في صورة أحياء قد أعياهم الانكسارُ والهزيمةُ والذلُّ :

يا إخوتي!!

في مرجلِ النيرانِ

في الكرِّ..

وفي الفرِّ..

وفي الخصامْ..

هذي حميرُ الوحشِ..

من قحطانَ..

من عدنانَ..

أعياها..

وأدمى نفسَها الفصامْ

إني أرى جهنمًا تحرقهم..

لكنهم.. نعامْ...

لكنهم.. نِيامْ...

(ص ٦٣)

إنّ الشاعرَ يحاولُ بروحه الشعرية أن يُعرّي الفسادَ المتفشّي في الوطن العربي على صعيد الإعلام مستعيرًا مرض الكلب كرمز للكذب والنفاق والتلفيق والخداع والرذيلة والزور والادعاء، فيتوجه إلى الحكام العرب قائلاً :

أيها القادةُ في دنيا العربْ !!

أغلِقوا كلَّ الإذاعات

وشاشاتِ المراني

قد أُصيبت بالكلبْ..

أصبح الطمْثُ..

وعَوْراتُ الغواني

كلَّ ما يعني أساطينَ الخطبْ..

obeikandl.com

ونسينا أين كنا....

أين أصبحنا...

وما الآتي سوى جهلٍ

وحزنٍ... ووصَبْ....

(ص ٦٦)

ويتابع الشاعر متحسِّرًا على ما آلت إليه حالة الأمّة العربية من تردٍّ وضياع بعد أن كانت تفاخر الأمم بأمجادها الغابرة المشرقة:

أمَّتي تمشي على

دربِ انهياراتِ الحِقبْ

كيف كنا سادةَ الدنيا

وأصْبحنا حذاءً... وذنبْ..؟؟

(ص ٦٧)

إنَّ الشاعرَ في هذا الشعر لا يدعو إلى تحطيم معنويات العرب، والقضاء على كبريائهم، وإنما يضع يديه على الجرح، ويصرخ بصوته القويّ كاشفًا الستارة عن الحقيقة المؤلمة البشعة، وعن نقاط ضَعف الأمّة، فالشاعر يوضح الأخطاء ويدعو إلى تجاوزها وإن استخدم أساليب اللوْم والتعنيف والسخرية، فهو شاعر حُرٌّ وغيورٌ على شعبه، ومُحِبٌّ لوطنه، يرفضُ له ما

يرفضه لنفسه من خنوع واستسلام وذلّ، ويتألم لهذه الأوضاع المهينة المأساوية التي تجسِّدها الأبيات التالية:

ينـــامونَ ســـكرى في قـــرونٍ ســـحيقةٍ
وتشـــعِلهم في الصّـــحو دنيـــا الرذائـــلِ
دواجـــنُ هـــذا العصـــر أبنـــاءُ يَعـــرُبٍ
فنـــامي هنيئًـــا يـــا فلـــولَ القبائـــلِ
فـــلا الـــدّينُ يُجـــدي في زمـــان الجحافـــلِ
ولا اللهُ يُعطـــي في عُصـــورِ التخـــاذلِ

(ص ٣٩)

ويلجأ شاعرُنا في قصيدة "يسوعُ ابن الإنسان" إلى الاستغاثة بالسيد المسيح باعتباره رمزًا للألم والخلاص والسلام ونصيرًا للمستضعَفين والمعذبين في الأرض حيث يجدُ الشاعرُ في ذلك عزاءً روحيًا يخفف من وطأة آلامِهِ ومعاناته النفسية النابعة من الأحوال المتردِّية لأمته أو شعبه الرازح تحت نير القهر والظلم والاستغلال، والسّادر عن مجابهة واقعه القاتم الأليم...

وها نحن نستمعُ إلى الشاعر وهو يخاطب السيد المسيح قائلاً:

أيّهـــا المـــاردُ القـــويُّ أجرْنـــا

نحـــنُ في خنـــدقٍ ظلـــومِ المقـــامِ

أنـــت نـــورُ الـــدُّنى إذا جـــنّ ليـــلٌ

أنـــت حـــقٌّ يُبيـــدُ نـــارَ الخصـــامِ

أنـــت نـــورُ الحيـــاةِ في كـــلِّ عصـــرٍ

أنـــت بـــدءٌ وأنـــت مِسْـــكُ الختـــامِ

(ص ٨٠)

ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أنَّ ديوان الشاعر شفيق حبيب الذي نحن بصدده، يتضمن في قسميه الأخيرين قصائدَ تقعُ وتندرجُ في إطار الرثائيّات وشعر المناسبات، ويبرز في هذه القصائد صدقُ الشاعر في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره تجاهَ المواقف التي تناولها بلغةٍ وجدانيةٍ شفافةٍ رقيقة، ذاتِ نزعاتٍ إنسانيةٍ جديرةٍ بالتقدير والاحترام.

وخلاصةُ القول إن الأستاذ الشاعر شفيق حبيب مطبوعٌ بطابع الحساسيّة المرهفة والذي سعى بحرصٍ متناهي الجوانب في ديوانه هذا، إلى الانخراط بقصائده، في مضمون السياسة الوطنية القومية القويمة الهادفة. وحين نتعمقُ في خبايا شاعريته، نقف على تطوّر الأحداث التي عصفت وما زالت تعصف بالشرق العربي، لترينا وقعَها على نفسه، وانجذابَه إليها بنزعات سليمة التواصل، مضمونة الأهواء والمرامي. وقد

عبر الشاعر عن أحاسيسه الحقيقية في محبة شعبه وأمّته ووطنه وإن كان قاسيًا أحيانًا من منطلق غيرته عليهم. إنه في كل قصيدة من قصائده ذات النمط الجريء، ينطلقُ في قضيته انطلاقَ عنفوان، ويُظهر من الكبرياء الجريح، والعَزّة المُسْتباحة، ما يوقظ الضمائر، ويبسطُ من مشاهد الظلم والفتك ما يستثير الهمم الغافية، ويفتحُ من صفحات التاريخ ما يبعثُ الشوق إلى المجدِ الذي هو غاية كل الشعوب الكريمة.

ولذلك نرى أن الشاعر يدرك بأنّ نهضة الأمّة المسلوبة الإرادة لا تقوم إلا على وعي أبنائها، والخروجِ بهم من ظلمة الجهل والتخاذل، وهو بذلك يحسّ آلامَ شعبه ومجتمعه، وآلامَ نفسه المعذبة في أوطانٍ مُستباحَة لا يجدُ المستبدّون عنها انفكاكًا. لذا فإنه يبذل كل طاقته الشعرية لإيقاظ الضّمائر النائمة ونشر الكلمةِ المسئولة، وإن كانت تطفحُ ببعض المعاناة المتراكمة في صدره.

وأخيرًا، أصدق التحيات، وأطيب التمنيات للأستاذ الشاعر شفيق حبيب بدوام الإبداعِ وارتقاءِ القمّة من الإحساس الجماليّ، والصِّدقِ الوجدانيّ.

جريدة "الاتحاد" الحيفاوية ١-٦-٢٠٠٥